معاجم مصطلحات البحث والتأليف العربية المعاصرة

د/ خالد فهمي
كلية الآداب / جامعة المنوفية / مصر

مدخل:

لم يكن مدهشاً أن يقرر فرانتز روزنتال أن المسلمين كان لهم إسهام جبار فى ميدان التأليف العلمي، وهذا الرأي الذي افتتح به كتابه (مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمي ص ١٥) جاء مدعوماً بما توصل إليه كثير من العلماء الغربيين من أمثال فون كريمر.

وبالإمكان أن نقرر أن وجود جهاز مصطلحي أو مدونة مصطلحات عربية للتأليف والبحث العلمي عند العرب كاف فى هذا السياق لإثبات تفوق الحضارة العربية الإسلامية فى باب التأليف والبحث العلمي منذ وقت مبكر مقارنة بما عرفته فيما بعد الحضارة الغربية.

وهذه الحقيقة جاءت نتيجة منطقية للعناية المبكرة التي أولاها الإسلام العظيم لتَدَبُّر نصه الأكبر الحاكم فى الثقافة العربية وهو الكتاب العزيز، فضلاً عن العناية المبكرة التي تجلت فى الحث على القراءة والبحث والتأمل على مستوى النصوص الشرعية فى القرآن الكريم والسنة المشرفة وعلى مستوى الواقع منذ زمان مبكر جداً يعود إلى عصر النبوة.

(١) العناية بمصطلحات التأليف والبحث العلمي فى الحضارة الإسلامية قديماً

ظهرت عناية الثقافة العربية الإسلامية بمصطلحات التأليف والبحث العلمي فى ميادين متنوعة يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: معاجم المصطلحات المتعددة العلوم (أو ما نسميها باسم معاجم المصطلحات العربية) مثل: مفاتيح العلوم للخوارزمي، والتعريف للجرجاني، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، وجامع العلوم للأحمد نكري، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي.

ثانياً: مصنفات تصنيف العلوم: هذه المصنفات غايتها التعريف بالعلوم المختلفة، وبطرائق تصنيفها، ومن أشهر ما عرفه التأليف العربي فى هذا الباب المعرفي: إحصاء العلوم للفارابي، وطبقات العلوم لصاعد وترتيب العلوم لساجقلي زاده.

ثالثاً: مصنفات الفهارس والببليوجرافيا العربية، التي اعتنت برصد الإسهام العلمي عبر التاريخ مثل: الفهرست لابن النديم، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده، كشف الظنون لحاجي خليفة.

رابعاً: مصنفات علم الحديث (الدراية)؛ لما فيها من عناية فائقة بطرق تَحَمُّل العلم وأدائه، وكيفية نقد المتن وغيرها من المسائل المهمة جداً فى التأليف والبحث العلمي، مثل: تدريب الراوي للسيوطي، والجامع للخطيب البغدادي، والإلماع للقاضي عياض.

خامساً: مؤلفات أصول الفقه ومعاجمه؛ لاهتمامها بالمجتهد وشروطه، وهى كثيرة تملأ المكتبة العربية مثل: الحدود للباجي، والتعريفات الدقيقة لزكريا الأنصاري، وبيان كشف الألفاظ التي لابد للفقيه من معرفتها للأمشي الحنفي، المنسوب خطأ للأبذى المصري.

ولا يمكن التغافل هنا عن مؤلفات علم الأصول والجدل والمناظرة والمنطق، لعنايتها جميعاً بطرائق الاستدلال، ونقص الأدلة، وعكسها، وبيان بطلان الباطل منها، ورد أقوال الخصوم. وكلها من لوازم عمل الباحث فى التأليف والبحث العلمي.

سادساً: مؤلفات تحقيق التراث وإعداد البحوث ومناهجها، ومؤلفات أصول التوثيق ونشر الكتب وعلم المكتبات والوثائق، وعلم المخطوط العربي، وهى كثيرة جداً ومتنوعة تنوعاً خصباً.

واعتماد ما ورد فى هذه المصنفات كاف فى إخراج معجم غزير المادة لمصطلحية البحث العلمي عند العرب، وهو ما يعكس الوجه الحضاري الرائع للثقافة العربية الإسلامية فى عطائها المعرفي للإنسانية فى هذا المجال الخطير.

وقد كان لغياب كثير من هذه المصادر عن المعاجم المصنوعة حديثاً لمصطلحات التأليف والبحث العلمي عند العرب ـ أثر ظاهر فى إخلالها بعدد كبير من هذه المصطلحات لم تظهر فيما بين أيدينا من هذه المعاجم المعاصرة.

وفيما يلي أمثلة لمصطلحات التأليف والبحث العلمي العربية توافرت فيما رصدته من المصادر التي تعد أصلاً لازماً لصناعة أمثال هذه المعجمات، وهي من مصدر واحد فقط هو معجم التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي المصري (ت ١٠٣١هـ)(١):

- آداب البحث = صناعة نظرية؛ لاستفادة كيفية المناظرة، وشروطها صوناً عن التخبُّط فى البحث، وإلزاماً للخِصم وإفحاماً.
- الدخيل = وقولهم : هذا الفرع دخيل فى الباب ؛ أى : ذُكِر استطراداً أو لمناسبة، ولا يشتمل عليه عقد الباب.
- العرض = وله معان منها : استظهار الكتاب حفظاً، ومقابلته بنسخة صحيحة لتصحيحه وضبطه.
- الغصب = فى آداب البحث : منع مقدمة الدليل، وإقامة الدليل على نفيها قبل إقامة المعلل الدليل على ثبوتها سواءاً لزم إثبات الحكم المتنازع فيه ضمناً أم لا.

- المبادىء = هي التي تتوقف عليها مسائل العلم، كتحرير المذاهب، وتقرير المباحث، فللبحث أجزاء مترتبة بعضها على بعض، وهى: المبادىء والأواسط، والمقاطع، والمقدمات التي تنتهي الأدلة والحجج إليها.

وهذه أمثلة قليلة جداً لما تحتفظ به لغة العرب فى هذا المجال المهم، مما يمكن الإفادة منه، وهو ما كان لغيابه الأثر السلبي فى معاجم مصطلحات التأليف والبحث العلمي العربية المعاصرة.

(٢) معاجم مصطلحات التأليف والبحث العلمي العربية المعاصرة

اجتهد المعاصرون من علماء العربية فى قطاع كبير من قطاعات العمل المعجمي ولا سيما المختص أن يبتكروا أنواعاً من المعاجم لم تلق العناية اللائقة بها قديماً من جانب، أو أن يدفعوا بهذه المعاجم لإظهار بعض من الاتهامات أو الأخطاء الشائعة فى مجال معرفي معين.

هذه الصورة هي التي حكمت ظهور معاجم مصطلحات التأليف، والبحث العلمي العربية المعاصرة، يقول الدكتور/ أحمد جاسم النجدي:

"من الأفكار الشائعة بين كثير من الباحثين فكرة تشير إلى أن منهج البحث علم اقتبسناه من الغربيين ضمن ما اقتبسناه فى بداية عصر نهضتنا من علوم وفنون، ولم يكن اقتباسنا لهذا العلم مقتصراً على خطواته ومبادىءه فقط، بل شمل كثيراً من مصطلحاته الدالة على خطوة من تلك الخطوات، أومبدأ من تلك المبادىء بعد ترجمتها إلى لغتنا واستعمالها بمدلول يدل على تلك المبادىء والخطوات "(٢).

ويؤكد الدكتور / عبد الله بن محمد أبو داهش أن الدافع وراء عنايته بجمع مصطلحات البحث العلمي هي أنها متفرقة فى غير ما مكان مما يفوت فرص الإفادة منها.

وقد عرف التصنيف المعجمي العربي المعاصر معجمين لمصطلحات التأليف والبحث العلمي، هما كما يلي:

(أ) (**معجم**) مصطلحات البحث والتأليف الأدبي عند العرب للدكتور أحمد جاسم النجدي ١٩٨٦م، صدر ضمن كتاب المورد بعنوان : دراسات فى اللغة، تحرير / طراد الكبيسى، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد سنة ١٩٨٦م (ص ١١٧-١٤٤).

(ب) معجم مصطلحات البحث العلمي للدكتور عبد الله بن محمد أبى داهش، سنة ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م / صدر عن مكتبة العبيكان، الرياض سنة ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م ص ١٩١.

(٢/١) وظائف مهمة

فحص الأهداف التي حكمت ظهور هذين المعجمين يعكس عنايتهما **بتحقيق الوظائف والأغراض** التالية:

أولاً: الوظيفة الحضارية: وتعني البرهنة على تَقَدُّم العلم في الثقافة العربية الإسلامية في ميدان البحث والتأليف من خلال جمع مصطلحاته واستعمالها برهاناً على عطاءات هذه الحضارة وسبقها في ميدان البحث العلمي ومناهجه مقارنة بغيرها من ثقافات الألسنة الأخرى.

وهذه الوظيفة هي التي حكمت ما صنعه الدكتور / أحمد جاسم النجدي وظهرت صراحة في تقديمه كما مر بنا.

ثانياً: الوظيفة المعرفية / العلمية: ويُقصَد بها العناية بالمفاهيم والتصورات التي تحملها هذه المصطلحات، ولا سيما بعد تقادم العهد بها، يقول الدكتور/ النجدي (ص ١١٩): "وفائدة أخرى يفيدنا إياها جمع هذه المصطلحات القديمة وإظهارها، ذلك أن بعض من يطالع كتاباً من كتبنا الأدبية القديمة قد يمر بالمصطلح فيتبادر إلى ذهنه المعنى اللغوي للمصطلح، أو المعنى الشائع له الذى قد يكون مخالفاً لمعناه الاصطلاحي عند القدامى، ومن ثم يفهم النص الذى يقرؤه على غير وجهته الصحيحة ؛ وبهذا يقوم البحث (يقصد معجم مصطلحات التأليف والبحث العلمي) بمساهمة نحسب لها فائدتها في تيسير قراءة النص".

وهو ما يؤكده الدكتور / عبد الله أبوداهش في صدر مقدمته لمعجمه في مصطلحات البحث العلمي (ص ٧) حيث يقرر إنه: "لم يكن في عُدَةِ الباحث وأدواته ما يفي بمعاني المصطلحات العلمية الواردة في هذا المعجم ؛ مما دعا لجمعها وترتيبها ".

ثالثاً: الوظيفة التربوية والأخلاقية، ويقصد بها أثر هذين المعجمين في المبادىء التي تتسرب إلى أنفس المستعملين من تأمل كثير جدا من المداخل / المصطلحات التي تحمل قيماً تربوية وأخلاقية، ولا سيما أن عدداً ضخماً من مصطلحات التأليف والبحث العلمي تتعلق بآداب البحث وأخلاق العلم وسمات الباحث وآداب التلقي، وأخلاق النقل.

(٢/٢) منهجية ترتيب المصطلحات في معاجم مصطلحات التأليف والبحث العلمي:

لم يكن غريباً أن يرتب الدكتور / أبو داهش مصطلحات معجمه في مصطلحات البحث العلمي وفق المنهج الهجائي الألفبائي النهائي ؛ أى من غير اعتبار للحروف الجذور أو الأصول، وهو المنهج الأشهر من معيار التيسير، ولا شك أن ذلك يعكس وعياً معجمياً معاصراً من جانب، ويعكس وعياً بضرورة توفير مبدأ التيسير في العمليات المختلفة في البحث والتأليف.

ومراجعة المصطلحات التالية، وهي منقولة حسب ورودها عنده دالة على هذا المنهج المتبع (مداخل باب الباء):

- الباب = جزء من المحتوى العلمي في الكتب أو البحوث العلمية... ص ٩٨

- الباحث = المؤلف المستقصى ذو الصفات العلمية... ص ٩٨.
- البَحّاث = كالباحث.. ص٩٨.
- البَحّاثة = المصنف العالم ذوالقدرة على التدوين والتأليف... ص ٩٩
- البحث = بذل الجهد فى موضع ما وجمع المسائل التي تتصل به... ص ٩٩.
- البسملة = ما تفتتح به البحوث العلمية... ص ٩٩.
- البَشْر = إزالة بعض المكتوب بالسكين بطريقة معينة... ص ١٠٠.
- البطاقة = ورقة مصممة بشكل معين تُستَعمل فى جمع المادة العلمية... ص ١٠٠.

فهذه المصطلحات التي تُدخِلنا فى بعض تعريفاتها منقولة بترتيبها من المعجم المشار إليه؛ وهى تدل على المنهج الذى وصفناه والعلة الظاهرة من هذا المنهج هي التيسير بل الإنعام فى التيسير ولا شك.

وهذا المنهج هو الذى يدعم الوظيفة العلمية التي هدف إليها صانع هذا المعجم.

أما الدكتور / أحمد جاسم النجدي فقد خالف ولم يرتب مداخل/ أو مصطلح (معجمه) وفق المنهج الألفبائي، وإنما جاءت مداخله عشوائية لا تخضع لمنهج ترتيبي فى الظاهر، كما يلي : (الأصول/ التأليف/ الباب/ الترجمة/ الثبت/ التحرير/ الدفتر/ الديوان/ الرسالة/ المعارضة/ التعليق/ المقابلة/ الكتاب/ المظان/ النسخ/ أنشد).

ولعل عدم انشغال الدكتور النجدي بالترتيب على الرغم من قلة المصطلحات التي أوردها راجع إلى اهتمامه بما سميناه بالوظيفة الحضارية ؛ أى اهتمامه بإعادة الاعتبار لمنهجية البحث العلمي عند العرب من خلال مجموعة من مصطلحات التأليف والبحث تكون قادرة على تصحيح التصور المغلوط المتعلق بعلاقة العرب القدامى بالبحث العلمي.

وتسمية هذه المحاولة معجماً تحمل شيئاً غير قليل من التَجُوز والتوسع، وإلا فهي فى الحقيقة محاولة مبدئية، تنتمي لما يسمى بتوائم المفردات ترمي إلى التدليل على غاية محددة.

(٣) الطريق ما زال طويلاً:

وتأمُل هاتين المحاولتين على ما أصابهما من نقص يفتح الباب واسعاً للقول إن الحاجة إلى معجمات تُعني بمصطلحات التأليف والبحث العلمي فى العربية – ما تزال مُلحة جداً، لاعتبارات كثيرة لعل أهمها أن غايات التأليف والبحث العلمي عند العرب مختلفة تماماً عن الغايات المتواترة عند غيرهم، وهو الأمر الذي يتعرض لكثير من الضبابية بتأثير من غول الثقافة الغربية، ومن شأن العناية بمعاجم مصطلحات التأليف والبحث العلمي عند العرب أن يعيد تصحيح التصورات والمفاهيم المرتبطة بهذا الميدان التي ظلت على امتداد التاريخ الإسلامي مرتبطة بقيم التوحيد والربانية والإعمار وتزكية الأنفس والتراحم، وهو ما غاب غياباً

ظاهراً عن ميادين البحث العلمي في الحضارة الغربية المعاصرة.

المراجع :

(١) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر، بيروت/ دمشق، ط ١ سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م (ص ٦٣٣/٥٣٩/٥١١/٣٣٥/٤٥)

(٢) مصطلحات البحث والتأليف الأدبي عند العرب، للدكتور أحمد جاسم النجدي (ضمن : كتاب المورد : دراسات في اللغة، بغداد ١٩٨٦م) ص ١١٩.